الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبـيل الهجرة وبعدها

دراسة مقارنة

د. أحمد محمد محمد شعبان
باحث ورئيس قسم البحوث في مركز
بحوث ودراسات المدينة المنورة

تمهـيد: يرسم هذا البحث الملامح العريضة للحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبيل هجرة الرسول الكريم ﷺ والمسلمين إليها، والنقلة النوعية التي أحدثتها الهجرة الشريفة في كل جوانب الحياة الاقتصادية فيها.

ويوضح البحث أيضاً الأسباب التي كانت تعيق سكان يثرب عن الانطلاق في اقتصادياتهم إلى الأسواق العالمية، ومدى تأثير الهجرة في تجاوز تلك الأسباب.

كما يوضح أهمّ المعاملات التجارية التي كانت سائدة عند سكان يثرب في الجاهلية، و مدى تأثير ها السلبي على الاقتصاد المحلي، والتشريعات الحكيمة التي فرضها النبي ﷺ للقضاء على أسباب الفساد والغش والاستغلال.

ويرصد البحث ـ في شقه الثاني ـ تطور الحركة الاقتصادية في المدينة المنورة ونموها شيئاً فشيئاً إلى نهاية العهد المدني بهدف رسم صورة متكاملة للحياة الاقتصادية التي عاشها الحبيب الأعظم ﷺ و صحابته الكرام في المدينة المنورة خلال عشر سنوات.

الحياة الاقتصادية في المدينة (يثـــرب) قبيـــل الهجـــرة

المجت مع اليثر بي مجت مع زرا عي في الدر جة الأولى، له ن شاطات تجار ية و صناعية محدودة، و قد تصدرت الزرا عة اقتصاديات يثرب بسبب وفرة مياهها وخصوبة تربتها[١].

ففي سهولها التي تحيط بها الحرار تنساب ستة أودية تمتلئ بالمياه في عدد من شهور السنة أشهرها: وادي العقيق[٢] وقناة[٣] وبطحان[٤] ورانوناء[٥] ومذينيب[٦] ومهزور.[٧]

وتنت شر في الأرض الواق عة بين هذه الأود ية الآ بار والع يون والم ياه

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب ٣١٢/١٣.

(٢) من أودية المدينة المشهورة، أصل مسيله من النقيع قبلي المدينة، ويصل إلى الخليقة، ثم يأتي غربي جبل عير ويصل إلى ذي الحليفة، ثم يأتي مشرقاً إلى قريب ا لحرة ثم يعرج يساراً. انظر: تحقيق النصرة للمرا غي ص٣٠٩؛ وفاء الوفا ١٠٣٧/٣؛ آثار المدينة للأنصاري ص٢١٥.

(٣) من أودية المدينة يأتي من شرقها، وأعلى مصادره من وج في الطائف، ويشق ا لحرة المحترفة، ويصل إلى محاذاة أحد من الناحية الجنوبية، وهو المعروف اليوم بسيل سيدنا حمزة. انظر: آثار المدينة للأنصاري ص٢٣٣.

(٤) من أودية المدينة، يبدأ من بستان الماجشونية إلى غرب مسجد الفتح، ويخترق منطقة قربان في مجراه، ويعرف عند أهل المدينة بسيل أبي جيدة. انظر: أخبار المدينة لابن شبة ١٦٧/١؛ المغانم المطابة ص٢٨٦؛ آثار المدينة ص٢٢٩.

(٥) من أودية المدينة المشهورة، مصدره جبل جنوبي عير، يمر بنخيل العصبة، ويختلط سيله بوادي بطحان. انظر: تحقيق النصرة ص٣١٤؛ وفاء الوفا ١٠٧٢/٣؛ آثار المدينة ص ٢٢٥-٢٢٧.

(٦) من أودية المدينة، يأتي من شرق حصن كعب بن الأشرف، ويسير حتى يختلط بوادي بطحان. انظر: آثار المدينة للأنصاري ص٢٣٠.

(٧) من أودية المدية، يصدر من حرة واقم، ويجتمع بمذينيب، ويصبان معاً في وادي بطحان، ثم يمضي الجميع إلى الغابة مجمع سيول المدينة بضاحيتها الشمالية، ومنه شعية تشق طريقها في الحرة الشرقية إلى العريض فتصب في وادي قناة. انظر: آثار المدينة ص ٢٣١-٢٣٢؛ تاريخ معالم المدينة للخياري ص٢٠٦.

السطحية، ومن أشهر آبارها: بئر أريس[١] في قباء، وبئر بُضاعة[٢] في منطقة تسمى باسمها، وبئر رُومة[٣] في الجهة الغربية الشمالية، بالقرب من وادي العقيق، وبئر غَرس[٤] في العالية.

وترجع خصوبة أرض المدينة (يثرب) إلى عاملين أساسيين:

الأول: الرواسب البركانية الناتجة عن تفتت الحرار.[٥]

والثاني: الرواسب الطبيعية التي تجرفها السيول.

وكان لهذه الطبيعة أثر كبير في اجتذاب الهجرات المتوالية إليها، بدءاً بالعبيليين الذين أسسوها، وانتهاء بالأوس والخزرج. وهؤلاء جميعاً قدموا من مجتمعات زراعية عريقة، وأسهموا في توسيع الرقعة الزراعية، وتنوع المحاصيل.

النخيل أشهر مزروعات يثرب:

---

(١) تقع البئر قرب مسجد قباء من الجهة الغربية. وسميت بـ (أريس) نسبة إلى رجل من اليهود، كما سميت بـ (الخاتم)؛ لأن خاتم الخلافة سقط فيها من عثمان بن عفان في السنة السادسة من خلافته وبحثوا عنه ثلاثة أيام دون جدوى، وهو الخاتم الذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: وفاء الوفا ٩٤٢/٣ ـ المغانم المطابة ٧٨/٢ ـ معجم معالم الحجاز ٨٩/١.

(٢) تقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي، كانت البئر لبني ساعدة، أتاها النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ منها وبصق فيها، أزيلت في التوسعة الأخيرة للمسجد النبوي الشريف، وتطوير المنطقة المحيطة به. انظر: المغانم المطابة ٩١/٢، وفاء الوفا ٩٥٦/٣، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ص١٨٥

(٣) بئر قديمة تنسب لرجل من قبيلة غفار اسمه رومة، وتسمى بئر عثمان؛ لأن الصحابي الجليل عثمان بن عفان ﷺ اشتراها وأوقفها في سبيل الله. تقع في الشمال الغربي من المدينة المنورة قرب مجرى وادي العقيق، وتبعد عن المسجد النبوي حوالي خمسة كيلومترات. انظر: الترمذي كتاب المناقب مناقب عثمان ٣٦٩٩/٤، وفاء الوفا ٩٦٧/٣، معجم معالم الحجاز ١٦٢/١، ٤ /١٠١.

(٤) تقع البئر شرقي مسجد قباء، إلى جهة الشمال قليلاً، في ظل مبنى مدارس الهجرة حالياً، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستطيب ماءها ويبارك فيها، انظر: المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزآبادي ١٢١/٢، وفاء الوفا ٩٧٨/٣، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، للخياري، ص ١٨١.

(٥) أخبار الوادي المبارك ص٢٨٢.

يعتبر النخيل أهمّ المزروعات في المدينة (يثرب)[١] حتى اشتهرت به، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب)).[٢]

ويصف امرؤ القيس يثرب بالجنة لكثرة نخيلها فيقول:

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل أو كجنة يثرب[٣]

ويعدُّ التمر المحصول الأول والأهم عند اليهود والعرب على السواء، وكان يسمى عندهم مالاً، قال أحيحة بن الجلاح □ وكان سيد الأوس في الجاهلية □ يصف بستاناً له يعمل فيه:

إني أقيم على الزوراء أعمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال
لها ثلاث بئار في جوانبها فكلها عُقُب تسقى بأقبال[٤]

وفي حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم))[٥] أي: نخيلهم وبساتينهم.

والنخيل من أنفس أموال أهل يثرب، تدرّ على صاحبها الربح الكثير،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ١/١٨-٢٢.

(٢) الحديث في البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٣/١٣٢٦، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، ٤/١٧٧٩.

(٣) البيت في ديوان امرئ القيس ص١١ من قصيدة مطلعها: خليلّي مرّا بي على أم جندب ❖❖ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ
وانظر: المفصل لجواد علي ١٣/٧١، وتاج العروس، مادة جرم.

(٤) انظر: الأغاني ١٥/٣٧، المدينة النبوية في فجر الإسلام لمحمد حسن شراب ص٣٠. والعقب: جمع عقبة وتعني النوبة، وأقبال الجداول: أوائلها ورؤوسها.

(٥) الحديث في البخاري، كتاب المزارعة، باب ما جاء في الْغَرْسِ، ٢/٨٢٧، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فَضَائِلِ أبي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ ﷺ ٤/١٩٣٨.

و قد ورد عن ا لنبي صلى اللّه عل يه و سلم أ نه قال: ((خير ا لمال سكة مأبورة))[١] أي: نخل مصطف ملقح. و ما ذاك إلا لأن التمر مادة أسا سية في غذاء العرب، يأكلونه رطباً ويابساً في حِلّهم وأسفارهم.

واشتهرت المدينة بأنواع متميزة من التمور لا تزال حتى الآن، كالعنبرة والعجوة والصفاوي والبرني وغيرها، وقد ألّف فتح ا لدين الزرندي ا لمدني رسالة في أنواع تمور المدينة رتّبها على حروف المعجم فبلغت مائة وثلاثة عشر نوعاً.[٢]

ولم تقتصر منافع النخيل عند اليثربيين على تمرها فقط، بل كانوا يستفيدون من مع ظم أجزائ ها، من جذوعها وع سفها في صنع ال عرائش وسقوف البيوت وأعمدة الخيام، ومن نوى تمرها في طعام الحيوا نات، وقد أوصل البعض فوائد النخيل إلى ٣٦٠ فائدة.[٣]

ويشغل النخيل حيزاً غير قليل من شعر أهل يثرب وأمثالهم، مما يدل على امتزاجه بحياتهم، وبُعد جذوره في مجتمعهم، فمن ذلك قولهم في المثل: (الت مرة إلى الت مرة تمر)[٤] و هو م ثل ي ضرب في است صلاح ا لمال وجم عه، وقولهم: (التمر في البئر وعلى ظهر الجمل)[٥] وأصله أن ثمرة النخيل حينما

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد ٤٦٨/٣، ومسند الشهاب ٢٣٠/٢، والمعجم الكبير ٩١/٧، من حديث سويد بن هبيرة ﷺ

(٢) ذكر ذلك الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه: "الحقيقة وا لمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز" قال: ووجدت بخط بعض العلماء أسماء تمور المدينة الشريفة على حروف المعجم، لفتح الدين الزر ندي ا لمدني و هذه هي حروف المعجم". ثم بدأ بسردها. وأو صلها إبراهيم با شا في مرآة ا لحرمين إلى ١٧٢ نو عاً. انظر: المدينة النبوية في فجر الإسلام ٣٩٣/١.

(٣) المفصل في تاريخ العرب ٦٩/١٣.

(٤) هذا المثل من قول أحيحة بن الجلاح. انظر: جمهرة الأمثال للعسكري ٢٨٢/٢، ومجمع الأمثال للنيسابوري ص١٣٧.

(٥) انظر: المستقصي في أمثال العرب للزمخشري ص ٣٠٧، ومجمع الأمثال للنيسابوري ص١٣٧ قال: " و هذا قريب من قولهم عند الصباح يحمد القوم السرى".

تصبح بُسراً يقف منادٍ على أطم من آطام المدينة فيقول هذا، يقصد بذلك أن من سقى وجد عاقبة سقيه في تمره، ثم أصبح يضرب في حسن عاقبة المجد.

ومن الشعر قول أحيحة بن الجلاح يذكر فضائل النخلة:

هي الظل في الحر حق الظلي ـل والمنظرُ الأحسنُ الأجملُ
تَعَشّى أسافلُها بالحَبـــوب وتأتي حَلوبتُها من عــلُ[١]
وتصبح حيث تبيت الرعــاء وإن ضيعوها وإن أهملوا
فعــم لعمكــم نافـــع وطفل لطفلكم يؤمـــل[٢]

ويأتي الشعير في الدرجة الثانية من مزروعات يثرب من حيث الكمية والأهمية، يزرعونه تحت النخيل غالباً[٣]، وكانوا يصنعون منه الخبز، ويطعمون منه مواشيهم[٤]، أما القمح فكانت زراعته قليلة[٥]، ولهذا روى ابن حجر عن ابن المنذر قوله: "ولم يكن البر بالمدينة ذلك الوقت إلا الشيء اليسير منه"[٦]، وكانوا يستوردونه من الشام.[٧]

وأما الفواكه فأوفرها وأكثرها العنب[٨]، يأكلونه رطباً ويابساً، ويعتبرونه من غالب قوت البلد؛ لكثرة تداوله بينهم[٩]، ثم البطيخ والرمان

---

(١) البيتان في شرح أبيات المغني: ٦/ ١٣٣. وفي اللسان (ظلل). شبه النخل بالإبل. فأسفلها يأخذ غذاءه من التراب. والمثمرة منها يدرك ثمرُها فوقها.

(٢) المدينة النبوية في فجر الإسلام لمحمد حسن شراب ١/ ٣٥ .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي، تحقيق محمود شاكر، القاهرة سنة ١٩٤١م.

(٤) مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص٢٩٣، يثرب قبل الإسلام لمحمد السيد الوكيل ص١٣٢.

(٥) وهذا يفسر لنا عدم ذكره ضمن أصناف الزكاة.

(٦) فتح الباري ٣/ ٤٣٧.

(٧) التراتيب الإدارية للكتاني ٢/ ٥٢ - ٥٣.

(٨) مجتمع المدينة في عصر الرسول ص٣٣٨.

(٩) يثرب قبل الإسلام للوكيل ص١٣٣.

والموز والليمون.[١]

وهناك أنواع من الخضروات والبقول كالدباء والقثاء والكوسا والباذنجان والفاصولياء والثوم والبصل والكراث والسلق وغيرها[٢]، وكانت تزرع بين النخيل حيناً، وفي بساتين مستقلة حيناً آخر لتسد حاجة أهل يثرب.

وكانوا يتفاضلون في امتلاك الأراضي الزراعية، فمنهم من يملك المساحات الكبيرة، ومن هؤلاء أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهل رضي الله عنه[٣]، ومنهم من يملك قدر ما يستطيع زراعته والقيام عليه، ومنهم من لا يملك شيئاً فيضطر للعمل عند غيره عن طريق المزارعة[٤] أو الكراء أو المساقاة[٥] أو غير ذلك.

---

(١) انظر: عمدة الأخبار للعباسي ص٣٨١، يثرب قبل الإسلام للوكيل ص١٣٣،

(٢) يثرب قبل الإسلام للوكيل ص١٣٣، وينظر كتب الأحاديث والسير ففيها ذكر لهذه البقوليات.

(٣) وفي الصحيح: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاءَ، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يدخلُها ويشربُ من ماءٍ فيها طَيِّبٍ، فلما نزلت (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قام أبو طلحة إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه إنَّ اللَّه تعالى يقول في كتابه: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وإنَّ أحبَّ أموالي إلي بَيْرُحَاءَ وإنَّها صدقةٌ للَّه أرجو برَّها وذُخرَها عند اللَّه فضعْها يا رسول اللَّه حيث شئت. فقال: بَخٍ ذلك مالٌ رَائِحٌ ذلك مالٌ رَائِحٌ، قد سمعت ما قُلْتَ فيها وأرى أن تجعلها في الأقربينَ قال: أَفْعَلُ يا رسول اللَّه. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. تابعه إسماعيل عن مالك وقال رَوْحٌ عن مالكٍ: رَابِحٌ.

صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب: إذا قال الرَّجل لوكيله ضعه حيث أراك الله وقال الوكيل قد سمعت ما قلت ٨١٤/٢ دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا

(٤) المزارعة: معاملة على أرض ببعض ما يخرج منها والبذر من المالك. حاشية إعانة الطالبين للدمياطي ١٦٣/٢. وفي جوازها خلاف بين الفقهاء.

(٥) المساقاة: أن يعامل غيرَه على نخلٍ أو شجر عنب ليتعهَّده بالسَّقي والتَّربية على أنَّ الثَّمرة لهما. أسنى المطالب في شرح روض الطالب للشيخ زكريا الأنصاري ٣٩٣/٢.

وكان لبعض أغنياء يثرب وخاصة اليهود منهم عبيد يعملون معهم في الحقول، ومما يدل على ذلك قصة إسلام سلمان الفارسي ﷺ[١].

التجارة عند اليثربيين:

وتأتي التجارة في الدرجة الثانية من اقتصاديات يثرب قبيل الهجرة، وبالرغم من أنها تنشأ بشكل طبيعي في كل تجمع سكاني، إلا أن موقع يثرب المتميز على الطريق التجارية بين الشام ومصر في الشمال، واليمن والحبشة والهند في الجنوب، ساعدها على تنشيط التجارة فيها، حيث صارت محطة استراحة لكثير من القوافل، وسوقاً يتبادل فيها الجانبان السلع والمنتجات.

وقد تمخضت هذه الحركة عن نشوء أسواق تجارية توزعت في أنحاء مختلفة من أرض يثرب[٢] كسوق زبالة في الشمال الغربي في منطقة الجرف، وسوق الصفاصف في قباء، وسوق مزاحم في الجهة الجنوبية الغربية بين قباء وبطحان، وسوق بني قينقاع[٣] وسط المدينة، وهي أعظم أسواقها، تكثر فيها الحركة، ويسمع منها ضجة البيع والشراء.[٤]

وكانت بعض هذه الأسواق فضاءً واسعاً لا بناء فيه[٥]، ومن يسبق إلى السوق فله المحل الذي يضع فيه بضاعته، إلا أن بني قينقاع اتخذوا محلات لهم في سوقهم، يبيعون فيها المجوهرات[٦]، ويقومون بأعمال الصرافة

---

(١) انظر القصة في دلائل النبوة للبيهقي ٢/٨١.

(٢) انظر: تاريخ المدينة لابن شبة ١/١٨٤-٣٠٦، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٣٤١، يثرب قبل الإسلام للوكيل ص١٤٧.

(٣) وقد ورد ذكرها في الصحيح.

(٤) المراجع السابقة.

(٥) انظر: وفاء الوفا ٢/٧٤٩، مجتمع المدينة ص٣٤١.

(٦) وإلى هذا تشير قصة الأنصارية التي ذهبت إلى سوقهم لتبيع بعض حليها، فحاول بعض اليهود أن يعبثوا بها =

وتبادل النقود الرومية والفارسية وغيرها.

وكان أهل يثرب ومن جاورهم من البادية يعرضون في هذه الأسواق غلاتهم الزراعية ومنتوجاتهم الحيوانية وصناعتهم اليدوية، فكانوا يبيعون التمر والرطب والشعير والقثاء والسلق والعنب والبطيخ، والخمر والحطب واللبن والأقط، والإبل والغنم والمعاول الزراعية والحلي وبعض أنواع الأسلحة وغيرها.[١]

وأما القوافل التجارية فتأتي بالزيت والنبيذ والحنطة والمنسوجات القطنية والحريرية، والنمارق الملونة المرسومة، والعطور، وبعض الأسلحة، والرقيق.[٢]

وكانوا يتبايعون إما بالمقايضة وهو بيع عَرَض بعَرَض معادل له في الثمن ومتفق معه في الجنس كالتمر بالتمر، والذهب بالذهب، أو مختلف كالشعير بالتمر والذهب بالفضة، أو بالنقود وأشهرها[٣] الدراهم والدنانير.[٤]

والدرهم: قطعة مستديرة من الفضة، يضرب في بلاد فارس، ويرسم

=

فانتصر لها رجل من المسلمين فقتل اليهودي، إلى آخر القصة التي كانت سبباً في إخراج يهود بني قينقاع من المدينة. انظر الحادثة عند ابن إسحاق وغيره من كُتّاب السير.

(١) راجع كتاب البيوع من كتب الصحاح والسنن. وانظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص٣٦٦، يثرب قبل الإسلام للوكيل ص١٤٨.

(٢) مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٣٤١ .

(٣) أثبتت الحفريات الأثرية وجود بعض العملات العربية القديمة من حميرية ونبطية وتدمرية كانت متداولة، ويبدو أن تداولها كان على نطاق ضيق؛ لقلتها أو لضف الثقة بها. تطور النقود العربية لمحمد باقر الحسيني ص٤٥، ١٨، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٣٤١ .

(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٦١/١، المفصل في تاريخ العرب ١٧٦/١٤، وقد أشارت كثير من كتب الأحاديث والفقه إلى أنواع البيوع التي كانت العرب تتعامل بها في الجاهلية كالملابسة والمنابذة وغيرها.

عليه صورة كسرى، ويكتب اسمه بالفارسية، وعلى ظهره صورة حارسين بينهما موقد النار الذي يسهران على حراسته، كما كان يرسم على بعضها صور للقمر أو النجوم.[١]

وأما الدينار: فهو قطعة مستديرة من الذهب الخالص، يضرب في بلاد الروم، ويرسم عليه صورة الملك، ويكتب عليه اسمه بالرومية.[٢]

ويتم التعامل بالدراهم والدنانير في معظم الأحيان[٣] باعتبارها معدناً نفيساً وليس نقداً ثابت القيمة، فالدراهم كانت توزن؛ لأن منها الكبير والصغير والثقيل والخفيف، تبعاً لورودها من بلاد فارس[٤]، وأشهر وحدات الوزن هي: الأوقية وتساوي أربعين درهماً، والنش ويساوي عشرين درهماً، والنواة وهي خمسة دراهم، والرطل ويساوي اثنتي عشرة أوقية، والقنطار مائة رطل، ومن الوحدات المشهورة التي تستخدم لوزن الذهب والفضة أيضاً: الدانق والمثقال والشعيرة.[٥]

وكانوا يتبايعون بالكيل، وقد عرف عنهم أنواع من المكاييل أشهرها المدّ، ويُعدّ الوحدة الرئيسية لمكاييلهم، وهو يساوي ملء كفي الرجل المعتدل من التمور أو الحبوب، والصاع: ويساوي أربعة أمداد، والفرق: ويساوي ثلاثة آصع، والوسق: ويساوي ستين صاعاً[٦]، والقِرَب والجرار:

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية ٤١٦/١، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٣٥٨.

(٢) المرجعين السابقين.

(٣) التراتيب الإدارية ٤١٣/١-٤١٦، مكة والمدينة للشريف ص٣٠٦.

(٤) الدلالات السمعية للخزاعي ص٦٠٥، التراتيب الإدارية ٤١٣/١، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة. د أكرم ضياء العمري ص٣٠ .

(٥) مكة والمدينة للشريف ص٣٠٦، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة. د أكرم ضياء العمري ص٣٠، وانظر: المفصل لجواد علي ١٨٤/١٤، ١٨٨ .

(٦) المراجع السابقة، وانظر: المحلى لابن حزم ٢٤٦/٥، وفقه الزكاة للقرضاوي ٣٦٧/١-٣٧١.

وتقاس بها السوائل كالزيت والسمن والماء، وهي مختلفة الأحجام.

وأما الأطوال فأشهرها: الذراع ويساوي ٤٩,٨٠ سم تقريباً[١]، والميل ويساوي ٢٦٦٦متراً تقريباً،[٢] والفرسخ ويساوي ثلاثة أميال.

وبالرغم من وجود هذه المكاييل والموازيين والمقاييس إلا أنهم كثيراً ما كانوا يلجؤون إلى الجزاف في البيع والشراء.[٣]

وكانوا يتبايعون بأنواع من البيوع في بعضها غرر وغش وضرر بالمجتمع كالمناجشة وهو أن يَدخُل بعضُ الأشخاص في البيع لا بقصد الشراء وإنما بقصد رفع قيمة السلعة حتى يوهم الناس بأنها جيدة ورائجة[٤]، وكثيراً ما يخلطون الجيد بالرديء، ويبلون القمح والشعير بالماء حتى يكثر عند الكيل، ويتركون الماشية التي يريدون بيعها دون حلب حتى يجتمع اللبن في الضرع فيحسبها الشاري حلوباً غزيرة اللبن. كما كانوا يبيعون إلى أَجَل، أو مقابل رهن يقدّمه المشتري إلى أن يدفع القيمة ويسترد الرهن، وهاتان الوسيلتان من أبرع وسائل زيادة الربح وتنشيط الحركة التجارية، حيث كان يقبل على الشراء من يملك الثمن ومن لا يملك الثمن. بيد أن فيها من الضرر بالمشتري ما لا يخفى، حيث يستغل البائع حاجته فيرفع السعر مقابل التأجيل، وكان لليهود دور بارز في هذه الأسواق، وأثر سيئ في إشاعة

---

(١) رجح السمهودي وتبعه صالح لمعي كون الذراع يساوي ٤٩,٨٠، انظر: المدينة المنورة تطورها العمراني ص ٤٨. ويقدر الميل بـ ٢٦٦٦م وأما الفرسخ فيقدر بثمانية أكيال تقريباً. أخبار الوادي المبارك ص٨١.

(٢) هناك خلاف في مقدار الميل فقد رجح العياشي في كتابه: "المدينة بين الماضي والحاضر ص٣٠ أن الميل يساوي ١٥٠٠م أي: كيلو ونصف، وقال شراب في كتابه: "المدينة المنورة في فجر الإسلام والعصر الراشدي ص٣٣٩: إن الميل القديم يساوي حوالي كيلين ونصف الكيل. وحدده في كتابه: "أخبار الوادي المبارك ص٨١ بـ ٢٦٦٦م. ولعل الأرجح ما ذكره في المعجم الوسيط مادة (الميل) من أن الميل البري يساوي ١٦٠٩م والبحري ١٨٥٢م، وانظر: الموسوعة العربية العالمية (الميل).

(٣) الجزاف: هو أخذ الشيء بالحدس، بلا كيل ولا وزن ولا عدد. المفصل ٨٣/١٤ .

(٤) إعانة الطالبين للدمياطي ٢٦/٣ .

التعامل بالربا. وكان الربا الشائع في الجاهلية هو ربا النسيئة وهو: قرض مؤجل بزيادة مشروطة،[١] وكان أصحاب رؤوس الأموال من اليهود وغيرهم يحققون أرباحاً مضاعفة من خلال التعامل بالربا، إذ كان كل تأجيل لدفع الدين يجر إلى زيادة الفائدة الربوية، ويروى أن أنصارياً اقترض ثمانين ديناراً من يهودي بفائدة قدرها ٥٠ بالمائة من المبلغ لسنة واحدة.[٢]

وأما الأسواق الخارجية ليثرب فالشام واليمن، بيد أن اليثربيين لم يكونوا أصحاب قوافل على نحو ما كان عليه أهل مكة، ولكنهم كانوا يشاركون في قوافل التجار الآخرين، فقد ورد عن أبي رافع بن أبي الحقيق[٣] أنه كان يرسل بتجارة إلى الشام بواسطة القوافل، ويستورد منها الأقمشة المختلفة[٤].

ولعل أبرز الأسباب التي قللت خروج أهل يثرب بقوافلهم إلى الأسواق الخارجية اذ صرافهم إلى الزراعة واعتناؤهم بها، و شراؤهم بغيتهم من القوافل الكثيرة التي كانت تمرّ بهم، كما أن بعض الواردات من موانئ الجار[٥] وينبع كانت تجد طريقها إلى أسواق يثرب[٦].

تربيـــة الماشـــية:

تعتبر تربية المواشي ثالث الموارد الاقتصادية من حيث الأهمية عند

(١) انظر: الربا للمودودي ص٩٦، والمفصل لجواد علي ٤٢٣/٧ .

(٢) انظر: المفصل لجواد علي ٤٣٣/٧ .

(٣) أحد زعماء اليهود، وهو ممن ألب الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ. انظر سبل الهدى والرشاد ١٠٢/٦.

(٤) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص٣٠٤/١، مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٥٠، يثرب قبل الإسلام ص١٥٥.

(٥) الجار: أقدم وأقرب الموانئ للمدينة على ساحل البحر الأحمر، يبعد عنها مسافة ١٦٠ كم تقريباً، ويبعد عن بلدة الرايس مسافة ١٠كم. انظر: المسالك والممالك للاصطخري ص٣٣، المدينة المنورة في العصر المملوكي ص١٢٦. الموسوعة العربية العالمية ٥٢/١.

(٦) مكة والمدينة ص٣٠٤، يثرب قبل الإسلام ص١٥٦ .

اليثربيين، نظراً لكثرة فوائدها، وقلة مؤونتها، إلا أن ما يملكه أهل يثرب قليل بالنسبة لما تملكه مكة والقبائل العربية منها.[١]

ويوجد بالقرب من يثرب عدد من المناطق الرعوية، وقد عد السمهودي اثنتي عشرة منطقة تسرح فيها الماشية حول المدينة،[٢] فضلاً عن الغابة وزغابة وأطراف الأودية والشعاب، وفي شرق يثرب مراعٍ خصبة تقع بين يثرب والربذة كانوا ينتجعونها فيجدون فيها ما يسمن مواشيهم، ويغذي إبلهم.[٣]

والإبل أهمّ المواشي عندهم، وأعزّها لديهم، فبها يتفاخرون، وعليها يسافرون ويسقون الزرع، ومنها يشربون اللبن ويأكلون اللحم، ومن جلودها يصنعون النعال والقرب وحياض الماء، ومن أوبارها ينسجون الخيام، وكانوا يدفعونها دية للقتلى، ويذبحونها هدياً في الحج، وقرابين للأصنام.

ثم الغنم والماعز، وكانوا يعتمدون على لحومها وألبانها ويصنعون منها الأقط والسمن، كما كان للخيل مكانة خاصة عندهم، يعتنون بها عناية شديدة نظراً لأهميتها في الحروب والأسفار، تليها البغال والحمير فهي وسائل للنقل ومناسبة للفلاحة.

أما البقر فكانت قليلة عندهم، يكرهون تربيتها؛ لاحتياجها إلى الطعام الكثير والخدمة الزائدة، ولا تخلو بيوت المدينة من بعض الدواجن، يستفيدون من بيضها، ويأكلون لحومها.

الصناعة عند اليثربيين:

وأما الصناعة: فقد كانت العرب تأنف العمل بها وتحتقر من يمتهنها

---

(١) مكة والمدينة ص٢٩٦ .

(٢) وفاء الوفا ١١٢٣/٣، وانظر: التاريخ الشامل ١٠٧/١-١٠٨ .

(٣) يثرب قبل الإسلام ص١٤٤ .

بدرجات متفاوتة، وكان الحدادون يمثلون الطبقة الوضيعة عندهم، فلا يزوجونهم، ولا يتزوجون منهم، بل يأنفون من مخالطتهم والتحدث إليهم، وكانت كلمة (القَيْن) أي (العبد الرقيق) مرتبطة بهم لا تفارقهم. لذلك فإن معظم الصنائع كانت بيد اليهود والموالي وبعض الأفراد الوافدة من غير العرب[1]، وأهمّ الصناعات التي كان يقوم بها هؤلاء:

١- **الحدادة:** وهي من أهم الصناعات عندهم؛ لاحتياجهم الشديد إليها في صناعة الأسلحة والأدوات الزراعية وآلات البناء والأدوات المنزلية، وذلك كالسيوف والدروع ورؤوس الرماح والمساحي والسكك والفؤوس والعتل والمعاول والصحون والقدور.

وكان لليهود وبعض الموالي دور بارز في هذه الصناعة مستغلين احتقار العرب لها واحتياجهم إليها، فأصبح عندهم مستودعات مليئة بالأسلحة والأدوات الزراعية، يشتريها الناس منهم وقت الحاجة فيبيعونها بأسعار مرتفعة. ويذكر الواقدي أن المسلمين لما أرادوا حفر الخندق استعاروا من بني قريظة - وكانوا يومئذ سِلْماً لرسول الله ﷺ - آلة كثيرة من مساحي وكرازين ومكاتل ليعملوا بها، مما يدل على كثرتها لديهم.[2]

ويبدو أن هذه الصناعة وخاصة الأسلحة منها لم تكن تكفي حاجة أهل يثرب مما دفعهم إلى استيراد كميات أخرى من البلاد المجاورة أو عن طريق القوافل المارة كما سبق.

٢- **النجارة:** وهي من الحرف الضرورية أيضاً، يحتاجون إليها في صناعة مستلزمات الأسلحة من الأغماد والرماح والأقواس، ومقابض

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤/١٩٣.

(٢) المغازي للواقدي ١/١٧٥، ونقل ذلك السمهودي ٤/٢٦٨ عن الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان.

الخناجر والسكاكين، وهي أيضاً من الحرف المكملة للبناء سواء في صنع الأبواب والنوافذ، أو الأعمدة والسقوف، ولها دور كبير في تأمين أثاث البيت من الأواني والأقداح والأسرة والهوادج وغيرها ٠ وكان النجارون يؤمنون معظم احتياجاتهم الخشبية من الأشجار الموجودة عندهم من النخيل والشيزى والشوحط والأثل والطرفاء، كما كانوا يستوردون بعض الأخشاب الثمينة كالعاج وغيره. وكانوا يستخدمون في صناعتهم المنشار والفأس والمحفرة والكلبتان والمسمار وغيرها ٠ ويبدو أن هذه الصناعة قد وصلت إلى مراحل متقدمة حتى إن بعض بني النضير لما أُجلوا عن المدينة حمل بعضهم أبواب بيوتهم المزخرفة وبعض أخشاب سقوفها مما يدل على قيمتها العالية[1].

٣- **الصياغة**: وهي العمل بالمعادن الثمينة، وقد اشتهر بها اليهود، خاصة بني قينقاع[2]، فقد كان لهم سوق في وسط المدينة يصنعون فيه صياغتهم، ويبيعون فيه ما يصنعون من أساور وأقراط وخلاخيل ودمالج وخواتم وغير ذلك، كما كانوا يقومون بإصلاح الأسنان بالذهب والفضة، وتحلية السيوف، إضافة إلى صناعة بعض الأواني المنزلية. وكانوا يشترون الفضة والذهب الخالص من أصحاب المناجم المنتشرة في أنحاء الحجاز، فقد كان لبني سليم منجم يسمى باسمهم، ويعرف حالياً بـ (مهد الذهب)، وكان لبني كلاب منجم بالقرب من يثرب يقال له: (الأحسن)، وفي مركز الفرع بالقرب من يثرب أيضاً منجم يقال له: (بَحْران)، بيد أن هذه المناجم لم تكن تفي بحاجات اليثربيين نظراً لبدائية التنقيب والحفر،

---

(١) السيرة النبوية ١٤٣/٣، وانظر: التاريخ الشامل ١٠٧/١.

(٢) أخبار مدينة الرسول ص١٢ .

فكانوا يشترون ما نقص عن حاجاتهم من القوافل التجارية المارة بهم.

٤- **البناء**: كانوا يبنون ما تدعو الحاجة إليه من البيوت والحصون والآطام، مستفيدين من بيئتهم الخاصة في صنع أدوات البناء، لذلك كانت معظم الأبنية في غاية البساطة، جدرانها من اللبن الترابي، وأعمدتها من جذوع النخل، وسقوفها من جذوع النخل وجريدها، بعيدة عن الزخرفة والنقوش، ولكنها تؤدي الغرض الذي بنيت لأجله.[١]

وكانوا يستعملون الحجارة في بناء الحصون والآطام التي كانت تشتهر بها يثرب.

ولم يرد ذكر لبنّائين محترفين، وجميع الروايات تشير إلى أنهم كانوا يبنون بيوتهم بأنفسهم وبمساعدة معارفهم دون أجرة[٢].

٥- **صناعة الخمور**: وكانوا يصنعونها من العنب والتمور والشعير ويخزنونها لاستعمالهم الشخصي وللبيع، وكان يعمل في هذه الصناعة العرب واليهود على حد سواء.

وإضافة إلى ما تقدم فهناك بعض الصناعات الأخرى، كالخياطة والخبازة والدباغة والخرازة والخواصة والنساجة والقصابة والحجامة وغيرها، وكان يقوم بها في الغالب النساء في البيوت أو بعض العبيد[٣].

الصيـــد:

الصيد البري من الموارد الاقتصادية التي كان يعتمد عليها البعض في معاشهم، بينما هو هواية يمارسها البعض الآخر.

---

(١) الدرر الثمينة ص١٥٣، وانظر: وفاء الوفا ١٩٩/٢.

(٢) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة، د أكرم ضياء العمري ص٤٣ .

(٣) انظر: التاريخ الشامل ١٠٧/١، مكة والمدينة ص٣٧٦.

وكانوا يتفننون في طريقة الصيد، ويستخدمون لكل صيد ما يناسبه من الآلات، فكانوا ينصبون للحمار الوحشي فخاخاً من الحديد يدفنونها في التراب، ويطاردون الغزلان والأرانب بالخيول ويرمونها بالسهام، أو يضعون لها الشراك في الأرض، أو يوقدون لها النار في الليل فإذا قلّ بصرها أمسكوها بسهولة.[1] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾[2].

وأما صيد البحر فلم يكن من الموارد التي يعتمد عليها أهل يثرب في حياتهم؛ لبعدهم عن البحار.[3]

ومما تقدم يتبين لنا أن يثرب تملك مقومات اقتصادية عدة تؤهلها لأن تكون مركزاً اقتصادياً مهماً في الجزيرة العربية في ذلك العصر وأهمّها الموقع الجغرافي، والأراضي الخصبة، والصناعات المتعددة، غير أنها لم تبلغ هذه المكانة، ولم تظهر فيها أسواق متميزة تقصدها قبائل الجزيرة العربية كسوق عكاظ، ولم تخرج منها القوافل الضخمة على غرار قوافل مكة، وظل اقتصادها محلياً في الغالب يستفيد من القوافل العابرة، ولعل السبب الرئيسي في ذلك الفتن والحروب الداخلية التي نشبت بين الأوس والخزرج، وتأثير اليهود السلبي الذين كانوا يحتكرون السلع ويفشون الربا.

---

(١) يثرب قبل الإسلام ص١٤٢.

(٢) سورة المائدة: ٩٤.

(٣) يثرب قبل الإسلام ص١٤٢.

الحياة الاقتصادية في المدينة بعد الهجـــرة

رأينا فيما سبق- أن سكان يثرب يشكلون غالبية من العرب من الأوس والخزرج، وثلاث قبائل يهودية، وكانوا ينتشرون في أرض يثرب بالقرب من مجاري الأودية ومنابع المياه، يعتمدون في المقام الأول على الزراعة، ثم على ما يستفيدونه من القوافل العابرة، وعلى شيء من الصناعات الخفيفة.

وكانت الحالة الاقتصادية في يثرب تتذبذب وفقاً لتغير الأوضاع، فتسوء عند الجدب والحرب، وتزدهر في سنوات الخصب والسلام، وعندما بدأت هجرة المسلمين من مكة إليها أثّرت على اقتصادياتها بادئ الأمر خاصة وأن المهاجرين كانوا في الغالب فقراء، أو لم يستطيعوا إخراج أموالهم معهم، حتى إن صهيب الرومي تنازل عن ماله كله لقريش مقابل أن تتركه يهاجر[(١)]..ولكن الأخوة الإسلامية استعلت على جميع الظروف الاقتصادية، فاستضاف الأنصار العائلات المهاجرة، وتوزعوها فيما بينهم، وبقدر ما كانت ضيافة الأنصار كريمة، كان تعفف المهاجرين كبيراً[(٢)].

الزراعة في العهد المدني:

عندما وصل صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بترسيخ نظام اقتصادي جديد يساعد على التنافس الشريف، ويقضي على أسباب الاستغلال والفساد، وكانت أولى الخطوات الممهدة لهذا النظام المؤاخاة التي عقدها بين المهاجرين والأنصار، والتي كان لها أثرها الكبير في بناء

---

(١) انظر القصة بتمامها عند البيهقي في الدلائل ٥٢٢/٢، وصفة الصفوة ص٤٣٠-٤٣١.

(٢) انظر على سبيل المثال قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع رضي الله عنهما في دلائل النبوة ٢١٨/٦-٢١٩.

جو من التآلف والمحبة، ممّا مكّن الأنصار من التفرغ للزراعة التي هي عماد حياتهم الاقتصادية، وكان صلى الله عليه وسلم يشجعهم ويقول: ((ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة))[١]، ويقول أيضاً: ((إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل))[٢].

وكان لهذا التشجيع أثر كبير في انخراط عدد من المهاجرين في العمل بالزراعة بعد أن كانت تعافها نفوسهم، إذ لم يألفوها في مكة، وليس لديهم خبرة فيها، وعرضت الأنصار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم مزارعهم بينهم وبين المهاجرين فأبى، ثم اتفقوا على أن يعمل المهاجرون في مزارعهم ويقسمون الثمار فيما بينهم، فنشط لذلك المهاجرون، حتى لم يبق بيت منهم إلا وصار يعمل بالزراعة،[٣] فكان عليٌّ رضي الله عنه يسقي الماء من الآبار مقابل شيء من التمر، وهكذا فعل غيره من المهاجرين، ولما تكونت عندهم الخبرة الكافية شجعهم صلى الله عليه وسلم على إحياء أراض زراعية جديدة،[٤] وكانت الأنصار قد وهبت لرسول الله ﷺ كل الأراضي التي لا يصل إليها الماء، فكان ﷺ يقول: " من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها"[٥] فازداد نشاطهم، وأعمر عدد منهم

---

(١) متفق عليه. البخاري كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٨١٧/٢. ومسلم كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع ١١٨٩/٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٩١/٣.

(٣) وفي البخاري: باب المزارعة بالشطر ونحوه، وقال قيس بن مسلم عن أبي جعفر قال: ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا ويزرعون على الثلث والربع، وزارع علي وسعد بن مالك وعبد الله بن مسعود.... البخاري كتاب المزارعة بالشطر ونحوه ٨٢٠/٢.

(٤) تحقيق النصرة، ص١٤، ومجتمع المدينة في عهد الرسول ص٣٣٨.

(٥) رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً" ٨٢٣/٢.

كثيراً من الأراضي الموات، فكان للزبير مزرعة في المدينة يعمل فيها، وكان لعبد الرحمن بن عوف أرضٌ بالجرف يسقي على خمسين ناضحاً، وكان لسعيد بن زيد مزرعة في ذي الحليفة، وكان لهذا التشجيع أيضاً أثره في اتساع الرقعة الزراعية بالمدينة المنورة، بيد أنه لم يكن ليسد حاجة السكان المتزايدين في المدينة.

ولما أجلى الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود عن المدينة لخيانتهم ونقضهم العهود، وزّع أراضيهم بين المسلمين وخاصة المهاجرين، فظهر دخل اقتصادي جديد، عبرت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: " من حدثكم أنا كنا نشبع من التمر فقد كذبكم، فلما افتتحت قريظة أصبنا شيئاً من التمر والودك"[(١)].

لكن السرايا والغزوات المتتالية كانت تترك بصماتها على الأراضي الزراعية نتيجة غياب أهلها عنها.

وجاء فتح خيبر في السنة السابعة من الهجرة ليكون بدايةً للاكتفاء الذاتي، الأمر الذي حدا بالمهاجرين إلى أن يردوا للأنصار منائحهم[(٢)] من التمر التي كانوا قد واسوهم بها عند قدومهم للمدينة، روى البخاري عن أنس بن مالك أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا فرغ من قَتْلِ[(٣)] أهل خيبر فانصرف إلى المدينة رَدَّ المهاجرونَ إلى الأنصارِ منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم"[(٤)]. وقد عبر ابن عمر رضي الله عنه عن هذا التحسن

(١) صحيح ابن حبان ٤٦٠/٢، وانظر: فتح الباري ٢٩٢/١١.

(٢) المنائح: جمع منيحة وهي العطية.

(٣) المراد قتالهم.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة٩٢٦/٢.

الواضح في الاقتصاد المدني بقوله: (لما فتحت خيبر شبعنا من التمر)[١].

ولعل خبرة اليهود الكبيرة في الزراعة وانشغال المسلمين بالجهاد من أهم الأسباب التي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يترك أراضي خيبر بيد اليهود يعملون فيها على النصف مما يخرج منها، ثم سارع أهل فدك وغيرهم يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر فقبل منهم، وكثرت الخيرات لدى المسلمين، فكان صلى الله عليه وسلم يعطي أزواجه في كل عام من خيبر ثمانين وسقاً من تمر وعشرين من شعير.[٢]

وهكذا يتبين لنا أن التمر ظل بعد الهجرة أيضاً الثمرة الأولى من حيث الكمية والأهمية، وكان صلى الله عليه وسلم يشجع على زراعته ويقول: ((بيت لا تمر فيه جياع أهله))[٣] ويفسر الشجرة الطيبة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[٤] بالنخلة، ويشبهها بالمؤمن؛ لكثرة عطائها وتنوعه.[٥]

---

(١) فتح الباري ٢٩٢/١١، وانظر: تلخيص الحبير ١٢٢/٣.

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن نافعٍ عن ابن عمر قال: أعطى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم خيبر بشطر ما يخرج من ثمرٍ أو زرعٍ فكان يعطي أزواجه كلَّ سنة مائة وسقٍ، ثمانين وسقًا من تمر وعشرين وسقًا من شعير، فلما ولي عمر قَسْم خيبر خيَّر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع لهنَّ الأرض والماء أو يضمن لهنَّ الأوساق كلَّ عامٍ فاختلفن، فمنهنَّ من اختار الأرض والماء ومنهنَّ من اختار الأوساق كلَّ عامٍ، فكانت عائشة وحفصةُ ممَّن اختارتا الأرض والماءَ". صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزْء من الثَّمر والزَّرع، ١١٨٦/٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب في ادخار التمر ونحوه من الأقوات للعيال ١٦١٨/٣.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٥) روى البخاري في صحيحه ٣٤/١ عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: إنَّ من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها وإنَّها مثل المسلم فحدِّثوني ما هي، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد اللَّه: ووقع في نفسي أنها النَّخلة فاستحييت. ثمَّ قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول اللَّه. قال: هي النخلة.

وظل الشعير أيضاً في الدرجة الثانية بعد التمر من حيث الكمية والأهمية، يزرعونه تحت أشجار النخيل حيناً وفي حقول مستقلة أحياناً أخرى، يليه العنب وسائر الخضروات والبقول[١].

التجارة في العهد المدني:

ازدهرت التجارة بعد الهجرة بشكل تدريجي، وكان لبعض الصحابة كأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة وغيرهم دور بارز في ذلك نتيجة لخبراتهم السابقة، ومهاراتهم الفائقة، ولما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع عرض عليه سعد أن يشاطره ماله ويزوجه، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك دلني على السوق، وما هي إلا فترة وجيزة حتى جنى أرباحاً وافرة[٢]، وهذا ما شهد به أبو هريرة رضي الله عنه حين قيل له: إنك تكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدث بما لم يحدث به أبو بكر وعمر، فقال: " إن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق"[٣].

وقد كان تجار الصحابة يترددون بادئ الأمر على سوق بني قينقاع، وهي أشهر أسواق المدينة، وأكثرها حركة، حتى أصبحت لهم ثروة كبيرة استطاعوا بها أن يستغنوا عن سوق بني قينقاع وغيره من أسواق اليهود، ويحيوا سوقاً في منطقة المناخة، اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين غربي المدينة، ممتداً من الشمال إلى الجنوب بطول ٥٠٠م

---

(١) التاريخ الشامل ١/٢٣٢-٢٣٣.

(٢) انظر القصة في دلائل النبوة ٦/٢١٨-٢١٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، باب حفظ العلم، ١/٥٥.

وعرض ١٠٠م تقريباً[١]، وكان هذا السوق بمثابة ضربة قاضية لاقتصاد اليهود التجاري، من حيث تحول المسلمين إليه أولاً، واختيار موقعه ثانياً، فقد كان اختياراً يدل على عمق تجربتهم التجارية، وفهمهم أمور البيع والشراء، إذ كان واقعاً في جهة هي بمثابة المدخل الرئيس للمدينة، سواء من جهة الشام أو اليمن ومكة، وديار سائر القبائل المجاورة، مما مكنهم - ولا ريب - من تلقي التجار والوفود، حال وصولهم، موفرين عليهم مشقة الالتفاف برواحلهم المحملة حول بيوت المدينة أو التخلخل بينها حتى يصلوا إلى سوق اليهود داخل المدينة.[٢]

كما كان لتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم وإرشاداته الأثر الأكبر في تنشيط حركة السوق الجديد وتحول الناس إليه، فقد جعل السوق مجانية لكل من أراد التجارة، روى ابن شبة بسنده عن عطاء بن يسار قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً أتى سوق بني قينقاع ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال: (**هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج**)[٣]، ويروى أنه مر بالسوق فوجد خيمة قد ثُبّتَتْ، فقال: ما هذه الخيمة؟ قالوا: لرجل من بني حارثة يبيع فيها التمر، فقال: حرقوها فحرقت، فكانت المواضع لمن سبق إليها كل يوم.[٤]

وغرس صلى الله عليه وسلم في قلوب المسلمين الصدق والأمانة في

---

(١) توسع بعضهم في مساحة السوق فأوصله إلى خمسمائة متر عرضاً وألف ومائتي متر طولاً. انظر: الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه. للوكيل ص١٤٨.

(٢) مجتمع المدينة في عهد الرسول ص٣٤١.

(٣) تاريخ المدينة ٣٠٤/١، ونقله عنه السمهودي في الوفا ٧٤٧/٢.

(٤) أورده ابن زبالة بسنده، وهو علته مع انقطاعه. انظر: بحث البناء والكراء في سوق المناخة، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد الخامس، ص٢٥.

التعامل، وأقام العلاقات بينهم على المحبة والأخوة، وقضى على أسباب الاستغلال والفساد، فحرم الربا وتلقي الركبان والمناجشة والاحتكار والغش والرشوة، وكان يتابع صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه، فقد مر ذات يوم فرأى صَبُرة طعام، فأدخل يده فيها، فأصابت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال الرجل: أصابته السماء يا رسول الله. قال: **أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟! من غش فليس مني**))[(١)].

كما حرم كل ما يفضي إلى التنازع في المعاملات كالملامسة والمنابذة[(٢)] وبيع الثمرة قبل بُدُوِّ صلاحها، وغير ذلك من البيوع التي كانت معروفة في الجاهلية مما فيه غرر أو ضرر بأحد المتبايعين.

وأقرّ وحدات الوزن المكية، كما أقرّ مكاييل أهل المدينة فقال: "**الميزان ميزان أهل مكة، والمكيال مكيال المدينة**"[(٣)]. "وهذا التقرير يهدف إلى توحيد المكاييل والموازين في الدولة الإسلامية، وهي خطوة مهمة لاستقرار العدل في المعاملات التجارية، ويرجع اختيار ميزان أهل مكة؛ لشهرتهم في التجارة، وتعاملهم بالأوزان من المثاقيل والدراهم والأواقي ونحوها، فكانوا فيها أدق وأضبط، كما يرجع اختيار مكيال أهل المدينة؛ لكونهم مزارعين يتعاملون بالمكاييل من الوسق والصاع والمد

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بَاب قَوْلِ النبي ﷺ من غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ١/٩٩.

(٢) الملامسة والمنابذة من أنواع البيوع التي كانت شائعة في الجاهلية، وتعني الملامسة: لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار، ولا يقبله إلا بذلك. وأما المنابذة: فهي أن ينبذ الرجل إلى الرجل بثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه، فيكون ذلك بيعهما عن غير نظر ولا تراض. انظر: الإلمام بأحاديث الأحكام لابن أبي الطاعة القشيري ٢/٤٩١.

(٣) الحديث صححه ابن حبان والدار قطني والقشيري وابن دقيق العيد والعلائي. انظر: التلخيص الحبير لابن حجر ص١٨٣ .

ونحوها، فكانوا فيها أدق وأضبط، فأمر النبي ﷺ بالرجوع في كل معيار إلى من هم أعلم به"[١].

وبهذه الرعاية للسوق، والمحافظة على كيانه، اتسع نطاق التعامل فيه حتى قصده التجار من أنحاء الجزيرة العربية ومن خارجها، فكانت الثمار ترد إليه من الطائف، والحبوب والسمن والعسل تأتي إليه من الشام[٢].

وكان للأعراب حول المدينة دور في تنشيط حركة السوق، فقد كانوا يأتون بالسمن والأقط والإبل والغنم فيبيعونها، ثم يشترون ما يحتاجون إليه من طعام وكساء وسلاح وغير ذلك.

ولم تقتصر ممارسة المسلمين للتجارة على الأسواق الداخلية بل أصبحوا يخرجون بها إلى الشام، كما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه أنه خرج قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعام إلى بصرى وكان معه جمع من الصحابة،[٣] وورد أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لقيا الزبير وجمعاً من الصحابة كانوا قادمين من الشام، فكسى الزبير الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياباً بيضاء،[٤] بل إن بعض الصحابة كان قد بدأ بالسفر بالتجارة إلى الشام في وقت مبكر من هجرة المسلمين إلى المدينة، فقد روى بعض أصحاب السير أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى بدر كان طلحة بن عبيد الله غائباً في تجارة إلى الشام، ثم قدم بعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر، فضرب له بسهم.[٥] وهذا ما

(١) فقه الزكاة للقرضاوي ٢٥٤/١ بتصرف يسير.

(٢) التاريخ الشامل ٢٣٧/١ .

(٣) انظر: الاستيعاب في ترجمة سويبط بن سعد، ١٢٠٨.

(٤) البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ، ص ٨١٨.

(٥) أسد الغابة ٥٤٣/١ ترجمة طلحة بن عبيد الله.

يفسر الثروة التي جمعها بعض الصحابة في فترة وجيزة كـ عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي استطاع أن يجهز جيش العسرة بألف بعير وسبعين فرساً وألف دينار[١].

وظلت الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية العملة المتداولة على الراجح من الأقوال، كما بقيت المكاييل المدنية والموازين المكية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية شائعة في التعامل بين المسلمين.

تربية الماشية في العهد النبوي:

وأما تربية المواشي فقد نمت بعد الهجرة نمواً كبيراً[٢]، فبينما كان المسلمون في غزوة بدر يتعاقبون على سبعين بعيراً وفرسين، استطاع عثمان بن عفان بمفرده أن يموّل جيش العسرة بألف بعير وسبعين فرساً.

وكان للغنائم التي تأتي بها السرايا والغزوات أثر كبير في تنمية هذه الثروة الحيوانية، فقد غنم المسلمون في حنين وحدها أكثر من أربعة وعشرين ألف بعير وأربعين ألف شاة عدا الأفراس والأبقار[٣]، وكان اهتمام المسلمين بها كبيراً خاصة الجمال والأفراس؛ لحاجتهم إليها في السفر والقتال، وقد حمى النبي ﷺ مكاناً واسعاً تبلغ مساحته ميلاً في خمسة أميال يسمى النقيع[٤] لترعى فيه خيول المسلمين،[٥] وكان لهم سرح وهو: أن يجمع ما في المدينة من الجمال مثلاً أول النهار في مكان واحد، ثم يخرجها الرعاة إلى المراعي ويعودون في المساء، وربما قامت الجواري برعي

(١) انظر: الاستيعاب ٣٢٠/١.

(٢) مكة والمدينة ص٢٩٦.

(٣) الطبقات الكبرى ١٥٢/٢.

(٤) يقع النقيع على بعد ١٢٠ كم جنوب المدينة المنورة، بالقرب من الهندية.

(٥) انظر: مكة والمدينة ص٢٩٦.

أغنامهن.

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم سبع منائح من الغنم وسبع أعنز يرعاهن أيمن بن أم أيمن[١]، كما كان له عشرون لقحة يرعاها مولاه يسار في الغابة.[٢]

وكان لإلغاء الحمى الذي كان شائعاً في الجاهلية والذي يفرضه الأقوياء على مناطق واسعة من الأراضي، واختصاصه فقط بما يحميه الحاكم لمصالح الدولة بشكل عام؛ أثر كبير في حرية المراعي دون احتكار الأقوياء لها.[٣]

الصناعة في العهد المدني:

ازدهرت الصناعة بعد الهجرة بشكل عام، وكان لتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجيه حيناً والتطبيق حيناً آخر أثر كبير في تغيير النظرة الوضيعة التي كانت تنظر بها العرب إلى الصناعة والصنّاع.

دعاه مرة خياط إلى خبز شعير وإهالة فيها قرع فسارع إلى تلبية الدعوة مصطحباً معه أنس بن مالك[٤]، كما دفع ابنه إبراهيم إلى زوجة أبي سيف، وكان قيناً □ أي حداداً □ لترضعه[٥]، وكان ربما يدخل على أبي يوسف وهو ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت بالدخان[٦]، وكان يقول

(١) الكامل في التاريخ ١٨٠/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الصَّعْب بن جَثَّامة قال: إن رسول الله ﷺ قال: □ لا حمى إلا الله ولرسوله وقال: بلغنا أنَّ النبي ﷺ حمى النَّقِيعَ... انظر: صحيح البخاري، كتاب المساقاة والشرب، باب: لا حمى إلا لله ورسوله ٨٣٥/٢.

(٤) انظر الحديث في مسند الإمام أحمد ٢٨٩/٣، وأبي يعلى ٢٦٥/٥.

(٥) انظر: الحديث في مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصِّبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ١٨٠٧/٤ .

(٦) المرجع السابق.

صلى الله عليه وسلم: ((ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده))[١]، وسأله ذات مرة رجل أن يعينه فقال له: (اذهب واحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم...)[٢] وأمر بتعليم المرأة حرفة الغزل[٣]، وقال: (إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه المحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله...)[٤]، وشارك ﷺ بالعمل بيده الشريفة في بناء مسجد قباء، والمسجد النبوي، وكان يحمل الحجارة كما يحملون.

وتُعَدّ صناعة البناء أولى الصناعات التي ازدهرت بعد الهجرة واستمرت إلى ما بعد فتح مكة، نتيجة للأعداد الكبيرة التي هاجرت إلى المدينة المنورة، وهي في حاجة لمساكن تعيش فيها، وكان ﷺ يحدد لهم الأماكن التي يبنون عليها، ومعظمها حول المسجد النبوي الشريف، وكانت بيوتهم بسيطة تفي بالحاجة دون تفخيم أو تزيين. ولم يرد □ كما قدمت- ذكر لبنّائين محترفين في هذه الحقبة، إنما تشير الروايات إلى أنهم كانوا يبنون بيوتهم بأنفسهم وبمساعدة معارفهم دون أجرة[٥].

وأما الحدادة والنجارة فكانت الحاجة إليها شديدة في صناعة الأسلحة للدفاع بها عن المدينة، وللحاجة إليهما أيضاً في صناعة الآلات الزراعية والأدوات المنزلية التي زاد الطلب عليها بعد تزايد سكان المدينة، واتساع

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٢/٧٣٠.

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ١٠/٣٥٦.

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ٦/٣١.

(٤) سنن النسائي ٦/٢٢٣، ومسند أحمد ٤/١٤٨ واللفظ له.

(٥) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة د أكرم ضياء العمري ص٤٣ .

الرقعة الزراعية فيها، وليس لدينا معلومات تفصيلية عن الورش التي انتشرت في المدينة، لكننا نتوقع أنها كانت تنمو مع نمو الطلب على منتجاتها.

وكانت اليهود وبعض الموالي تسيطر على هاتين الصناعتين، وأما المسلمون فلم يشتهر بينهم في الحدادة إلا أفراد قليلون، منهم أبو سيف[١] زوج مرضعة إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم، وخباب بن الأرت[٢]، ومرزوق الصيقل[٣]، وهو الذي صقل سيف الرسول صلى الله عليه وسلم ذا الفقار.[٤]

وكان منهم النجار الذي صنع منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٥]

وكان المسلمون بادئ الأمر يعتمدون في تسليحهم وباقي ما يحتاجونه على هؤلاء الأفراد، وعلى ما يشترونه من اليهود، أو ما يغنمون من الغزوات، وعندما خرج اليهود من المدينة قلّت دكاكين الحدادة، واشترى الناس حاجاتهم من القوافل التجارية القادمة من الشام واليمن، ولما فتحت خيبر أسر المسلمون ثلاثين حداداً، فاستبقاهم الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) كان من الأنصار، وهو زوج أم سيف مرضعة إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم، ثبت ذكره في الصحيحين. الإصابة في تمييز الصحابة ١٩٧/٧.

(٢) من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل دار الأرقم، وكان ممن يؤذى في الله فيصبر ويحتسب، هاجر وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد، توفي سنة ٣٧هـ البداية والنهاية لابن كثير ٣١١/٧.

(٣) مختلف في صحبته، أخرج البغوي والطبراني من طريق محمد بن حمير قال: حدثنا أبو الحكم حدثني مرزوق الصيقل أنه صقل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الفقار، وكانت له قبيعة من فضة وحلق في قيده، وبكرة في وسطه من فضة. قلت: وليس في هذا ما يدل على صحبته وإنما ذكرته لاحتمال أن يكون عند من جزم بصحبته مستند آخر. الإصابة في تمييز الصحابة ٧٧/٦.

(٤) انظر: الإصابة لابن حجر ٧٧/٦.

(٥) وقد اختلف في اسمه على أقوال أصحها أنه ميمون. فتح الباري ٣٩٩/٢.

بين المسلمين؛ للانتفاع بصناعتهم خاصة صناعة الأسلحة.[١]

وإلى جانب ذلك كان في المدينة الخياطة والخبازة والدباغة والخرازة والخواصة والنساجة والحجامة والقصابة وغيرها، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه يصنع الخوص ليأكل من عمل يده[٢]، وكانت زينب زوج النبي صلى الله عليه وسلم تدبغ الجلود ثم تبيعها وتتصدق بثمنها[٣]، وقد أهدت إحدى الأنصاريات لرسول الله صلى الله عليه وسلم بردة نسجتها بيدها فقبلها منها[٤].

وأما الصياغة: فكانت مزدهرة في السنتين الأوليين من الهجرة، خاصة في أسواق بني قينقاع، حيث كانوا يحلون مقابض السيوف والخناجر، وينقشون على الأختام اسم صاحبها، ويصنعون أنوفاً من ذهب لمن أصيب أنفه، فلما نزح بنو قينقاع ضعفت هذه المهنة إلى درجة كبيرة، ولما خرج بنو النضير وقتل بنو قريظة لم يبق من دكاكين الصياغة إلا ما ندر.

وكان لتحريم الإسلام استعمال أواني الذهب والفضة، وتحريمه استخدام الذهب للرجال دور كبير في عدم ازدهار هذه الصنعة مرة أخرى.

وظلت صناعة الخمور مزدهرة إلى أن جاء تحريم الخمر بشكل كلي في السنة (الثالثة)[٥] من الهجرة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية ٧٤/٢، والتاريخ الشامل ٢٣٤/١.

(٢) الإصابة ١٤١/٣.

(٣) مرقاة المصابيح ٣٢٨/٤.

(٤) انظر: الحديث في البخاري، باب من استعدَّ الكفن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يُنكَرْ عليه، ٤٢٩/١.

(٥) وقيل: نزل تحريمها في السنة الرابعة. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ٣٠٠/١. وكان تحريمها في حصار بني النضير من اليهود مكان المسجد المعروف بالفضيخ. انظر: المغانم المطابة ٤٧٩/١.

وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] فسارع المسلمون إلى الاستجابة، وأراقوا ما عندهم من دنان الخمر، ومن ثَمّ توقفت هذه الصنعة بشكل كلي لدى المسلمين.

وظل أفراد من المسلمون يمارسون الصيد بعد الهجرة بطرائقهم وأساليبهم المعتادة، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم المدينة من جبل عير إلى جبل ثور، وجعلها منطقة محمية منع الصيد فيها، فابتعد الصيادون إلى الغابة ومناطق أخرى خارج الحرم، كما أرشد الصيادين إلى ذكر اسم الله تعالى عند الرمي، أو إرسال الكلب المعلم، ومنع أكل ما صيد بالمعراض إذا قتل بثقله لا بحده، إلى غير ذلك من الإرشادات النبوية التي تعرف في أماكنها من كتب الحديث والفقه.

الغنائم في العهد المدني:

وأما الغنائم التي كانت تأتي بها السرايا والغزوات فهي وإن لم تكن هدفاً أساسياً من أهداف الجهاد إلا أنها رفعت من اقتصاد المدينة، وساعدتها على مواكبة الزيادة السكانية فيها، فقد جاءت غزوة بدر بمغانم جيدة، أُسِرَ فيها سبعون من رجال قريش، افتداهم أهلوهم بأموال كثيرة، وجاءت غزوة قرقرة الكدر بخمسمائة من الإبل[2]، وغزوة القردة بما قيمته مائة ألف درهم[3]، وكانت غنائم بني المصطلق ألفي بعير، وخمسة آلاف شاة[4]، فضلاً عن الأمتعة والسلاح، كما كان إجلاء اليهود من المدينة والاستيلاء على أراضيهم وأموالهم من أقوى الروافد الاقتصادية

(١) سورة المائدة: ٩٠.

(٢)الطبقات الكبرى ٢/٣١.

(٣) الدولة في عهد الرسول لصالح العلي ص٣٥٧-٣٦٠.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/٦٤.

التي أتاحت للمسلمين الخروج من عيشة التقشف إلى شيء من الاكتفاء □ كما تقدم من حديث عائشة-، ثم جاءت غنائم خيبر ليودّع المسلمون بعدها سنين من الجوع والفقر، وتضعهم في أولى خطوات الازدهار الاقتصادي، وهذا ما عبّر عنه غير واحد من الصحابة بقولهم: (لما فتحت خيبر شبعنا من التمر)[١].

ثم جاءت غنائم حنين الطائلة لتكشف عن الوضع الاقتصادي الجيد عند المسلمين، فقد بلغت الغنائم أربعة وعشرين ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الشياه، وأكثر من أربعة آلاف أوقية من الفضة[٢]، فضلاً عن الأمتعة والسلاح.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليوزع معظم هذه الغنائم على المؤلفة قلوبهم لو لم يكن الوضع الاقتصادي عند المسلمين يسمح بهذا السخاء الكبير، ثم إن نصيب المحارب الذي فضل بعد هذه الأعطيات ليسمح بأن يطلق عليه ثروة، فقد بلغ نصيب الرجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، ونصيب الفارس اثنا عشر بعيراً، ومائة وعشرين شاة.[٣]

وجملة القول: إن المسلمين في المدينة عاشوا في السنوات الأولى من الهجرة عيشة تقشف وضيق، مع وجود أعداد قليلة من التجار امتلكوا ثروات كبيرة لكنهم أوقفوها لخدمة هذا الدين، ومع تطور الموارد الاقتصادية بما فيها المغانم التي تأتي بها السرايا والغزوات تحسن وضعهم الاقتصادي شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ حد الاكتفاء بعد فتح خيبر، ثم تطور بعد ذلك تطوراً كبيراً خاصة بعد غزوة حنين، فقد شعر العرب بقوة

---

(١) فتح الباري ٢٩٢/١١، وانظر: تلخيص الحبير ١٢٢/٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٣٣٩/٥.

(٣) المختصر ص٣٥٩، التاريخ الشامل ٢٢٨/١.

المسلمين وهيبتهم، فمنهم من دخل في الإسلام وأدى الزكاة، ومنهم من صالح على الجزية والخراج، وأصبحت مصادر التموين في الجزيرة كلها تحت سلطانهم، فكانت الأموال تجبى وترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة فيوزعها على المسلمين، روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه أَتِيَ بمال من البحرين فقال صلى الله عليه وسلم: ((انثروه، يعني صبوه في المسجد، وكان أكثر مال أتي به النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إلى المسجد ولم يلتفت، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه...))[1].

ومع ازدهار الاقتصاد وتطوره في المدينة إلا أن السنوات المجدبة كانت تترك آثاراً ثقيلة على المسلمين، ففي السنة السادسة من الهجرة أصاب الناس قحط شديد، ولحق بهم الضر، فاستسقى بهم النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان فمطروا.[2]

وفي السنة التاسعة من الهجرة جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً لغزو تبوك، وكان الناس في ضيق شديد، فقد اجتمع عليهم جدب السنة الماضية، وعدم نضوج ثمر السنة، مع شدة حر الصيف، وكان بعض الصحابة لا يجد ما يسهم به إلا صاعاً من تمر يأخذه من قوت عياله، بينما

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب القسمة وتعليق القنوِ في المسجد، ١٦٢/١.

(٢) روى البخاري عن أنس بن مالكٍ قال: أصابت الناس سنةٌ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم جمعةٍ قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول اللَّه هلك المال وجاع العيال فادع اللَّه لنا. فرفع يديه وما نرى في السَّماء قزعة فوالَّذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السَّحاب أمثال الجبال، ثمَّ لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والَّذي يليه حتى الجمعة الأخرى. وقام ذلك الأعرابيُّ أو قال غيره فقال: يا رسول اللَّه تهدَّم البناء وغرق المال فادع اللَّه لنا. فرفع يديه فقال: اللهم حوالينا ولا علينا. فما يشير بيده إلى ناحيةٍ من السَّحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهرًا ولم يجئ أحدٌ من ناحيةٍ إلا حدَّث بالجود.
صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة ٣١٥/١.

استطاع البعض الآخر أن يأتي بأموال وفيرة كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبي بكر الصديق وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين.

ويبدو أن اعتماد أهل المدينة على أراضيهم الزراعية في إطعام أنفسهم ودوابهم، وعدم استيرادهم من الطعام إلا القليل النادر، ثم إنفاقهم أولاً بأول في سبيل الله، وعدم شيوع الادّخَار والأموال المكتنزة لدى معظم المسلمين هو السبب وراء الضيق والجوع الذي يقعون فيه عند قلة الأمطار أو انعدامها، وهذه الظاهرة معروفة في المدينة حتى بعد الفتوحات الإسلامية التي حصلت في عهد أبي بكر وقسط من عهد عمر رضي الله عنهما، كما هو معروف من عام الرمادة. والله أعلم.